الباب السادس

الإسلام فى الحرب والسلم

دعوة الإسلام سلمية :

كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول أمرها سلمية ، وظل يسالم أعداءه ، ويصبر على ما يلقى هو وأصحابه من أذاهم السنوات الطوال ، ذلك الأذى الذى تفنن فيه الأعداء من ضرب وشتم ومقاطعة وإخراج وإحصار ، كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم صابرٌ محتسب ، يعفو ويصفح الصفح الجميل بأمر ربه ، ولكنّ أعداءه لكفرهم وخستهم لم يزدهم صفحه إلا عُتُوًّا وغروراً ، وهى شيمة النفوس الخبيثة التى لا تزداد بحسن المعاملة إلا تمرداً ونكرانًا .

وقد فكر بعض المؤمنين أن يردُّوا على العدوان بقتل من يستطيعون قتله من الكفار بالاحتيال والغدر ، ولكن الله تعالى نهاهم عن ذلك بقوله تعالى فى سورة الحج : (إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) ، وفى الآية نهى صريح عن الخيانة والغدر .

الإذن للمسلمين بالقتال :

ثم أباح الله للمؤمنين أن يقاتلوا أعداءهم وجهًا لوجه ، كما مر عليك ، ووعدهم النصر على أعدائهم ، فقال تعالى فى سورة الحج بعد الآية السابقة : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

وجاء الإذن بالقتال كما علمت بعد بَيْعة العقبة التى بايع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصارَ على أن يأتى المدينة ويحموه كما يحمون أنفسهم وأهليهم . وكانت أول وقعة بين المسلمين وأعدائهم غزوة « بدر الكبرى » فى السنة الثانية من هجرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وتم له فيها النصر المبين ، مع أن عدد أصحابه كان أقل من ثلث عدد أعدائهم ، ولكنّ الله أيده بجنود من السماء لاتراها العيون وتراها القلوب بنور اليقين ، وذلك النصر المبين هو الذى يَمُنُّ به الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى فى سورة آل عمران :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

التحريض على القتال :

وانظر كيف يحرّض الله المسلمين على القتال ، فيبين لهم فضيلة الاستشهاد فى سبيل الله ، وذلك فى قوله تعالى : (ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) .

ثم إنه تعالى يحذرهم من التباطؤ فى التجمع للحرب تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول تعالى فى سورة التوبة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ

اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

كما أنه تعالى يُسَوِّغُ لهم القتال المشروع ؛ فيقول كذلك فى سورة التوبة : (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

ويبين سبحانه أنه ولىّ المؤمنين ولا يتخلى عنهم فى قتالهم فيقول فى سورة التوبة بعد ذلك : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حكيمٌ) .

ولما حظر الله على المشركين دخول الحرم بقوله تعالى فى سورة التوبة : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَايَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هٰذَا) ، ورأى المسلمون أن ذلك سيؤثر فى أرزاقهم التى كانت ترتبط بتجارة المشركين ، طمْأنهم سبحانه بقوله الكريم : (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

ومما عوضهم الله به أن فرض الجزية على أعداء المسلمين ، فقال تعالى فى سورة التوبة : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دين الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) .

---

(١) فقراً .

الشدة على الأعداء :

ثم انظر كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ،وهو الذى يعلم أنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، فيأمره بأن يعامل الكفَّار والمنافقين بالغلظة التى يستحقونها ، فيقول سبحانه فى سورة التوبة : (يٰأَيُّها النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) ، وهى آية نسخ الله بها ما كان قبل القتال من العفو والصفح والصلح .

ويبين الله تعالى حكمته فى قتال الكفَّار بأن قتالهم إنما شرعه لدفع باطلهم وصدهم عن سبيل الله ، فهو يدفع بأهل الإيمان ، وهم أهل الحق ، أعداءهم الكافرين وهم أهل الباطل ، وذلك يتضح من قوله تعالى فى سورة القتال : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۞ ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۞ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) ، والمراد التخيير بين الأسر وبين المَن بالإطلاق وبين أخذ الفداء من الأسرى .

تعاون المؤمنين :

وكما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغلظ على الكافرين فى جهاده لهم ، أمر كذلك المؤمنين بالغلظة عليهم اقتداء به صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى فى سورة التوبة : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ

الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال العرب ، ثم قصد الروم بعد العرب وكان الروم بالشام .

وبيّن سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه يحب تعاون المؤمنين وترابطهم فى قتال أعدائهم ، فقال عز وجل فى سورة الصف : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) ، والبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً .

المتخلفون عن القتال :

وقد وبخ الله الذين تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقال تعالى فى تقريعهم فى سورة التوبة : (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ[1] فِى سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يخرجوا للحرب جملة ، شبّاناً وشيوخاً ، فقال تعالى : (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، حتى لقد رُوِىَ عن أنس رضى الله عنه أن أبا طلحة قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا)

---

(١) المخمصة معناها الجوع .

فقال : أى بَنِى ، جهِّزونى ، جهزونى . فقال بنوه : يرحمك الله ، وقد غزوت مع النبى صلى الله عليه وسلم حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، قال : لا ، جهِّزونى ، فغزا فى البحر فمات فى البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغير رضى الله عنه . وقال الزهرى : خرج سعيد بن المُسَيِّب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنّكَ عليل ، فقال : استنفر اللهُ الخفيفَ والثقيلَ ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرتُ السوادَ وحفَظْتُ المتاع[1] .

جهاد التفقه فى الدين :

وبينما قال تعالى : (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً . . .) بيّن لهم أن التفقه فى الدين من لوازم المسلمين ، وهو نوع آخر من الجهاد المفروض على فريق منهم لاحتياجهم إليه فى الوقوف على أحكام دين الله تعالى ،فقال عز وجل فى سورة التوبة : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) ، وفى هذا إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة ، وهو فرض كفاية فى التخصص إن أداه البعض سقط عن الآخرين ، فإذا تفقّه البعض كانوا مرجعاً للآخرين ، بدليل قوله تعالى فى سورة النحل : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) . والتفقّه بغير تخصص فرض على كل مسلم ومسلمة ، حيث يلزم الكل أن يعلموا أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج حتى تتم تأدية هذه الفرائض على الوجه الشرعى الصحيح ، ولهذا قال أنس ابن مالك رضى الله عنه : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « طَلَبُ العِلم فريضةٌ على كل مسلم » . وقال الربيع : سمعت الشافعى يقول : طلبُ العلم أَوْجبُ من الصلاة النافلة .

---

(١) يريد أن يقول إنه بخروجه يزيد فى عدد المقاتلين ، وإن لم يستطع قتال الأعداء فإنه يستطيع أن يكون حارساً ويحفظ متاع المقاتلين من الضياع .

جزاء المجاهدين :

وإذا أردت أن تستبشر بما أعده الله للمجاهدين فى سبيله فاقرأ قولَه تعالى فى سورة التوبة : ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وقد جاء فى معناها فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه : «وهو عوض عظيم لا يُدَانيه المُعَوَّض ولا يقاس به،فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيع والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال فسمَّى هذا شراء . وروى الحسن قال : قال رسول اللهصلى الله عليه وسلم : «إن فوق كل بِرٍّ بِرًّا حتى يبذل العبد دَمَه ، فإنْ فعل ذلك فلا بِرَّ فوق ذلك» وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقال الحسن : ومرَّ أعرابى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ . . .﴾ ، فقال : كلام مَنْ هذا ؟ قال : كلام الله ، قال : بيع والله مُرْبحٌ لا نُقيله ولا نَسْتقيله، فخرج إلى الغزو واستشهد .

الإسلام والقتال :

إذا قرأت فى كتب المبشرين ، أو كتب من يشايعونهم أو يتأثرون بهم ، فلا تنخدع بقولهم إن الإسلام لم ينتشر بمزاياه ، وإنما انتشر بحد السيف ، واستمع إلى ما يقوله فى دفع هذه الفرية العلامة «عباس العقاد» رحمه الله فى كتابه «عبقرية محمد» :

« فالحقيقة الأولى أن مطعن القائلين بأن دين الإسلام دين قتال إنما يصدق — لو صدق — فى بداءة عهد الإسلام يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح .

« لكن الواقع أن الإسلام فى بداية عهده كان هو المعتدَى عليه ولم يكن من قِبَلِهِ اعتداء على أحد ، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية ، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك ، (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

« وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه ،

« وحروب النبى عليه السلام — كما أسلفنا — كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود وحروبه مع الروم ، ففى غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره .

« والحقيقة الثانية ، أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع ،

« ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف " سلطة " تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه ،

« ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة ، وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف . . .

« وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت

تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء . . .

« والحقيقة الثالثة أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها .

« فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) .

« والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

« . . . إن الإسلام شرع الجهاد ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلَّا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلَّا بحقها وحسابهم على الله » ، وجاء فى القرآن الكريم : (فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا) .

« وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب ، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح ، إلا أن هذه الفتوح تأخرت فى الزمن ، ولم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة فى الإسلام ، فلا يمكن أن يقال إنها كانت وسيلة الإسلام للظهور ، وقد ظهر الإسلام قبلها ، وتمكن فى أرضه ، واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله .

« ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها ؛ فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه ، لوجب فى ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التى شاعت فى أرض فارس وفى أرض الروم ، ووجب أن يكف الشر الذى يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما إلى حماه ،

« هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية ، والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب ،

« . . . . والمقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها ، تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع ، فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام ، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه » .

ويقول العلامة العقاد ، رحمه الله ، فى كتابه « حقائق الإسلام » :

« وقد عزى انتشار الإسلام فى صدر الدعوة الإسلامية إلى قوة السيف ، وما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت ، وإن عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وإندونسيا والقارة الإفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار لا يكفى لتحويل الآلاف المعدودة — فضلا عن مئات الملايين — من دين إلى دين .

« ولقد عزى انتشار الإسلام بين السود من أبناء القارة الإفريقية إلى سماح الإسلام بتعدد الزوجات ، وما كان تعدد الزوجات بالأمر الميسور لكل من يشتهيه من أولئك السود المقبلين على الدين الإسلامى بغير مجهود ، ولكنهم يجدون الخمرة ميسرة لهم حيث أرادوها ، وقد حرمها الإسلام أشد التحريم ، فلم ينصرف عنه السود لأنه قد حال بينهم وبين شهوة الشراب التى قيل إنها كانت شائعة بينهم شيوع الطعام والغذاء » .

ثم يقول العلامة العقاد رحمه الله :

« إنما هو شمول العقيدة الإسلامية دون غيره ، هو العامل الذى يجمع إليه النفوس ويحفظ لها قوة الإيمان ، ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة ، كلما تفتحت أبوابها أمام المدعوين إليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين » ،

ويستطرد قائلا :

« قلنا فى باب العقيدة الشاملة من كتابنا عن " الإسلام فى القرن العشرين " :

« . . . . ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشته وعبادته، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا فى عبادته عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن ، ليعلم أنه وحدة كاملة فى دينه، ويعلم من ثم كل ما يرغبه فى ذلك الدين أيام كان الدين كله حكراً للكاهن ووقفاً على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة ،

« . . . . إن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ، ودخولهم أفواجاً فى عقيدة المسلمين ،

« مثل هذا لا يحصل فى أمة إسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب إلى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك إليك فإننى لا أومن به ، لأننى لا أومن بك ، ولا أرى فى سيرتك مصداقاً لأوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه .

« كلا ، ما من رجل دين يبدو للمسلم أنه صاحب الدين ، وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به ، لأنه إله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبين الله ، أو يعطيه من نعمته قواماً لروحه : (يٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) .

« نعم كلهم فقراء إلى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم إلا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فإن لم يجدوا المسجد ، فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء ،

« . . . . . كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ،

« . . . . إن هذا الشأن العظيم — شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم " وحدة كاملة " لايتجلى واضحًا قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الإسلامية . فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الإفريقية على يد تاجر فرد ، أو صاحب طريقة منفرد فى خلوته ، لايعتصم بسلطان هيكل ، ولا بمراسيم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولاسطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الإسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليونًا بين الهلال الخصيب وشواطئ البحرين الأبيض والأحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى أفريقيا وشواطئها ، إلا القليل الذى لا يزيد فى بداءته على عشرات الألوف » .

أقول : ولا شك أن انتشار الإسلام على الصورة الواسعة التى تمت بعد أن فارق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى ، إنما هى معجزة من المعجزات ، فعهدنا بالأديان التى جاء بها قبله سادتنا الرسل الكرام ، أنها كانت تضمحل بعد مفارقتهم للدنيا ، وكانت تتبدل وتتغير ، حتى فى عقيدة التوحيد التى هى أساس كل شريعة من شرائع الله تعالى ، وقد بشّر صلى الله عليه وسلم بالفتوحات التى تمت بعده ، فبشر بفتح فارس والشام ومصر . . . إلخ ، وتحققت المعجزة .

ولا شك فى أن بقاء معجزة القرآن الكريم بعده صلى الله عليه وسلم — وهى دالة بإعجازها على صدق رسالته — كان لها فضل كبير ، إن لم يكن لها كل الفضل ، فى انتشار الدعوة إلى الحد الذى انتشرت به ، فعدد المسلمين اليوم يصل إلى ربع سكان الأرض المعمورة الذين يزيدون على ثلاثة آلاف من ملايين البشر ، على حين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدد مدينة صغيرة من مدننا فى الوقت الحاضر ، ويؤيدنى فيما ذهبت إليه الحديث الشريف الذى يقول فيه صلى الله وسلم عليه : « ما من الأنبياء نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى

أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة » .

والقرآن الكريم قد جلّى العقيدة الإسلامية ببلاغته الباهرة، حتى صارت واضحة بينة لا لبس فيها ولا إبهام ، فاستوى فى فهمها وإدراكها الأمىّ والمتعلم ، كما بان للقارئ الكريم من البحث السابق ، وصانها الله بحفظه ورعايته من التغيير والتحريف بفضل بقاء القرآن وهو كلام الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

قتال دفاع :

وتأمّل كيف بيّن الله تعالى أن القتال فى الإسلام إنما هو قتال دفاع وليس بقتال هجوم أو اعتداء ؛ فقال تعالى فى سورة البقرة : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) ، فجعل سبحانه علّةَ القتال قيامَ الكفر ، فإن انتهى الأعداء من أهل الكفر عن الكفر بالإسلام ، أو قَبِلَ أهلُ الكتاب أن يعطوا للمسلمين الجزيةَ كفّ المسلمون عنهم القتال لزوال سببه باعتناق الإسلام أو أداء الجزية .

ومن كل ما تقدم ترى بغير خفاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عظيمًا فى حربه وسلمه ، وترك لأتباعه المسلمين خطط الحرب والسِّلم مرسومة ، يترسمون خطاه فيها ، ويهتدون بهديها ، وهم أقوياء فى الحرب وأمناء فى السلم .

فحروب النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها حروب دفاع ولم تكن حروب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد وإصرار الأعداء على القتال ، أو قتال سلطة تقف فى طريق الإسلام وتحول بينه وبين سماع المستعدين لقبول دعوته ، ولم يحتكم الإسلام الى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها كالخروج على السلطة الحاكمة أو قتال طائفة بغت على أخرى .

إعلان الحرب :

وحتى فى الإنذار بالحرب ترى عظمة الإسلام واضحة بيِّنة فى قوله تعالى فى سورة براءة: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ) ، وقد كان هناك صنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأُمهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فاكتفى معه بأربعة أشهر ليتدبر أمره ، ثم يحاربه المسلمون بعد ذلك ، فيقتل حيثما أدركوه أو يؤسر إلَّا أن يتوب . أما من كان أجله أكثر من أربعة أشهر فهو الذى قال تعالى فى حقِّهم : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) . وأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انقضاء الأربعة الأشهر الحرم .

فتح مكة المكرمة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صالح قريشًا عام الحديبية على هدنة مدتها عشر سنين ، يأمن الناس فيها الحرب ، فدخلت خُزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل بنو بكر فى عهد قريش ، فعَدَت بنو بكرٍ على خزاعة ونقضوا عهدهم ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من خزاعة مستغيثين به فيما أصابهم من بنى بكر وقريش، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاء لحلفائه : « لانُصِرتُ إن لم أنْصُرْ بنى كعب » ، ثم نظر صلى الله عليه وسلم إلى سحابة فقال : « إنها لتستهل لنصر بنى كعب » ، يعنى خزاعة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم : « إن أبا سفيان سيأتى ليشد العقد ويزيد فى الصلح وسينصرف بغير حاجة » فندمت قريش على ما فعلت ، وخرج أبو سفيان إلى المدينة ليُكَلِّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلح، فرجع بغير حاجة كما أخبرتهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتجهز رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى مكة ففتحها الله عليه وذلك فى سنة ثمان من الهجرة .

ومما قاله شعراً عمرو بن سالم الخُزاعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى استغاثتهم به :

يارب إنى ناشدٌ محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنتَ لنا أبًا وكُنَّا ولدا ... ثُمتَ أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً عتَدا ... وادع عباد الله يأتوا مدداً
فيهم رسول الله قد تجردا ... أبيض مثل الشمس ينمو صُعُدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عبددا
هم بيتونا بالوتير[1] هجّدا ... وقتلونا ركّعاً وسجّدا

أسباب النصر :

وديننا الحنيف يقوم على اتخاذ الأسباب ، مع حسن الاعتماد والتوكل على المسبب سبحانه ، فالنصر على الأعداء إنما يكون بإعداد القوة والصبر على مكاره الحرب ، ولذلك يقول تعالى فى سورة الأنفال : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) . ولعلك ترى ما أراه من مرونة فى قوله تعالى : (مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة) ، فإن ما كان يستطيعه أوائلنا من السيوف والدروع ليس كافياً فى زماننا الذى تطورت فيه أساليب الحرب ، فاحتاج القتال للقاذفات والمدّرعات والبوارج والصواريخ والأجهزة الإليكترونية . . . إلخ إلخ ، وهى ما نستطيعه الآن من القوة فى قتال أعدائنا . ثم لعلك تتبين معى روعة الحض على النفقة فى قتال الأعداء فى قوله تعالى : (وَمَا تُنْفِقُوا

(١) الوتير : اسم ماء بأسفل مكة كان لخزاعة .

مِنْ شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)، فهى تضحيات ، ولكنها مأجورة ومشكورة منه سبحانه وتعالى ، وهو الذى كتب القتال على المؤمنين درءًا لمفسدة المفسدين فى الأرض ، فقد قال تعالى فى سورة البقرة : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)، كما قال تعالى فى سورة البقرة : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

الصبر على مكاره الحرب :

ثم تَطلَّعْ مى إلى فضيلة الصبر على مكاره الحرب من خلال قوله تعالى فى سورة الأنفال : (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝ الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) . فهو مع الصابرين بنصره وتأييده سبحانه ، وانظر كيف شجع المسلم الواحد فى ثباته أمام العشرة ، ثم خفف عليهم الأمر فجعل ثبات الواحد أمام الاثنين ، فإن زادوا عن اثنين جَازَ لَهُ الفرار .

صلاة الخوف :

ويبين لنا سبحانه وتعالى أهمية الصلاة فى ساحة الحرب ، إذ هى عبادة تصل العبد بربِّه من طريق روحه وجوارحه ، فيقول عز وجل مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة النساء :(وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ

الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً).

فانظر كيف حرص الشرع على إقامة الصلاة فى ساحة الحرب!! وكيف لا يحرص على ذلك وللمعنويات أثرُها الكبير فى عزيمة المقاتل لأعداء الله انتصارًا لله ونصرًا لدينه ، وتأمل معى بلاغة القرآن الكريم فى رفع الروح المعنوية إذ يقول تعالى فى سورة النساء : (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) وحقًّا إنما يرجو المسلمون من نعيم الجنة بدفاعهم عن دين الله ما لا يَرْجُوه الكافرُ الذى يبوءُ بغضب الله ، وشتَّان بين النهايتين ويا بُعْدَ ما بيْن الفريقيْن ، فريقٌ فى الجنة وفريقٌ فى السعير . وقد وعد الله أهل التقوى نصره ، فقال تعالى فى سورة الحج . (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُره إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

قبول الصلح :

وانظر إلى سماحة الإسلام فى الحرب إذ يقول تعالى فى سورة الأنفال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ، والمعنى وَإن دعوك إلى الصلح فأجبهم ، ولا عجب فى ذلك ، فإن دين الإسلام ليس فيه عدوان ولا إكراه ، بل فيه دفاع عن العقيدة ، وحماية لها من طغيان الطاغين ، حين لا تجدى معهم

غير أسلحة القتال ، ورحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم فى هَمَزِيَّتِهِ :

الحربُ فى حقٍّ لديك شريعة ومن السُّمومِ الناقعاتِ دواء

فالإسلام فى حربه إنما يدفع بها الشر الذى يقف فى سبيل الهدى ودين الحق ، فإن مدّ أعداؤه يَدَ المسالمةِ جَنَح المسلمون للسلم ، وإن كان ثمة خلاف بين العلماء فى هذه الآية ، حيث قال بعضهم إنها منسوخة ، وقال الآخرون إنها ليست بمنسوخة . فقال قتادة وعكرمة نسخها قوله تعالى فى سورة التوبة أيضًا ؛ (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) ، وقوله تعالى فى سورة التوبة أيضًا : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) ، وقالا كذلك : نسخت براءة كل موادعة حتى يقولوا : «لا إله إلَّا الله» . أما ابن عباس ، فقال : إن الناسخ لها قوله تعالى : (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ) ، والذين قالوا إنها ليست منسوخة قالوا أراد الله قبول الجِزْية من أهل الجزية . وقد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمن عمر ومن بعده من الأئمة كثيرًا من بلاد العجم على ما أخذوه منهم وتركوهم على ما هم فيه وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا من أهل البلاد على مال يؤدونه ، من ذلك خيبر فقد ردّ أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف .

قال ابن العربى فى قوله تعالى فى سورة محمد : (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ) : إذا كان المسلمون على عزةٍ وقوةٍ ومنعةٍ وجماعة عديدة وشدة شديدة فلا صلح ، وإن كان للمسلمين مصلحة فى الصلح لنفع يجتلبونه أو ضرر يدفعونه فلا بأس أن يبتدئ المسلمون إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط نقضوها فَنَقَضَ صُلحهم ، وقد هادن قريشًا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده .

وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التى شرعناها سَالِكة ، وبالوجوه لتى شرحناها عاملة .

أقول : وما أعظم تثبيت الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى وجه أعدائه إذ يقول تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ، والمعنى أنهم إن أظهروا لك السلم كاذبين وأبطنوا الغدر خائنين ، فلا يضرّك سوءُ نيتهم فإن الله واقيك من مكرهم ودافع عنك شرّهم .

وما أروع وفاء الإسلام فى العهود القائمة بين المسلمين وأعدائهم المُهادنين ، كما يتجلى فى قوله تعالى فى سورة الأنفال : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ، والمعنى إذا كان لكم إخوان فى الإسلام وبقوا فى أرض الحرب ولم يهاجروا ، وطلبوا إليكم العون بقوات أو أموال فأعينوهم لاستنقاذهم من أعدائهم ، فذلك فرض عليكم ، إلا أن يستنصروكم على قوم كفار قام ميثاق بينكم وبينهم ، فلاتنصروهم عليهم حتى لاينقض العهد القائم الذى يجب أن تتموه إلى مدتهم ؛ ورحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وإذا أخذت العهد أو أعطيتَه ... فجميعُ عهدِك ذمةٌ ووفــاء